(٢٨) سهل التُّستري[١]

ذكر أبي محمد سهل بن عبد الله التُّستري رحمه الله:

كان من مُحتشمي أهل التصوف، ومن كبار الطائفة، وأحد أئمة القوم، ولم يكن له في وقته نظيرٌ في المعاملات والورع، وكان صاحبَ كراماتٍ، وكان سلطانَ الطريقة، وبرهانَ الحقيقة، وله في الجوع والسهر شأنٌ عظيم، وله همَّةٌ عالية، وقدرٌ جليل، صاحبُ علمٍ وعمل، حتى قال علماءُ الشريعة: هو قد جمع بين الشريعة والحقيقة.

وكان شيخُه ذا النون، لقيه بمكّة سنة خروجه إلى الحجِّ.

ولم يتّفقِ لأحدٍ من المشايخ ما اتَّفقَ له في أوان الطفولية؛ بل كان له قبل أوان الطفولية حالات عجيبة.

كما نقل أنّه قال: إنّي أذكرُ خطابَ الله تعالى في الأزل لمّا قال للأرواح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأنا قلت: بلى، وأذكرُ إذ كنتُ في بطن أمي[٢].

وقال: كنتُ ابنَ ثلاث سنين، وكنتُ أقومُ بالليل، وأَنظرُ إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقومُ بالليل، فربّما كان يقول: يا سهل، اذهبْ فنمْ، فقد شغلتَ قلبي، وكنتُ أنظر إلى صلاته سرًّا وجهرًا، فصرت إلى حيثُ أقول لخالي: أرى في نفسي حالةً عجيبة، فكأنّي أرَاني في السجودِ. فقال: إلى متى؟

---

(١) طبقات الصوفية ٢٠٦، حلية الأولياء ١٠/ ١٨٩، الرسالة القشيرية ٥٧، الأنساب ٣/ ٥٥، المنتظم ٥/ ١٦٣، صفة الصفوة ٤/ ٦٤، مناقب الأبرار ٢٠٦، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٥١، اللباب ١/ ١٧٦، وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠، العبر ٢/ ٧٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٠٠، الوافي بالوفيات ١٦/ ١٦، طبقات الأولياء ٢٣٢، نفحات الأنس ١٠٢، طبقات الشعراني ١/ ٧٧، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٦٣٣، شذرات الذهب ٢/ ١٨٢.

(٢) انظر صفحة ٥٨٥.

فقلت: إلى الأبد. فكان يقول لي: لا تُظهرْ سرَّك لأحدٍ. ثم قال لي خالي يومًا: أَلا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: بقلبك، عند تقلّبك في ثيابك بالليل ثلاث مرات من غيرِ أَنْ تحرّكَ به لسانَكَ: الله معي، الله ناظرٌ إليَّ، اللهُ شاهدي. فقلت ذلك ليالٍ، ثم أعلمته، فقال: قل في كلِّ ليلةٍ سبع مرّات. فقلتُ ذلك، ثم أعلمته، فقال: قل في كلِّ ليلةٍ إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوةٌ، فلمّا كانَ بعد سنةٍ قال لي خالي: احفظْ ما علّمتك، ودمْ عليه إلى أن تدخلَ القبرَ؛ فإنّه ينفعُكَ في الدنيا والآخرة. فلم أزلْ على ذلك سنين، فوجدتُ لها حلاوةً في سري، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهلُ، من كان الله معه، وهو ناظرٌ إليه، وشاهده، كيف يعصيه؟ إيّاك والمعصيةَ.

فكنتُ أخلو، فبعثوني إلى الكتّاب، فقلتُ: إنّي أخشى أن يتفرَّقَ عليَّ همّي، ولكن شارطوا المعلّمَ أنّي أَذهبُ إليه ساعةً، فأتعلّم، ثم أرجع. فمضيتُ إلى الكتّاب، وحفظتُ القرآن وأنا ابن ستٍّ أو سبعِ سنين، وكنتُ أصومُ الدهرَ، وقُوتي خبزُ الشعير، فوقعتْ لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثَلاث عشرة سنة، فسألتُ أن يَبعثوني إلى البصرة، فجئت البصرة، وسألتُ علماءَها، فلم يكشف[1] عنّي أحدٌ، فخرجتُ إلى عَبّادان إلى رجل يُعرف بأبي حبيب بن حمزة بن عبد الله العبّاداني[2]، فسألته عنها، فأجابني، فأقمتُ عنده مدةً أنتفعُ بكلامه، وأتأدَّبُ بآدابه، ثم رجعتُ إلى تُستر، وجعلتُ قوتي اقتصارًا[3] على أن يُشترى لي بدرهم من الشعير، فيطحن ويخبز لي، فأفطر عند السحر كلَّ ليلةٍ على أوقيّةٍ، وهي أربعون درهمًا بالوزن بحتًا ـ أي خالصًا مُخلّصًا ـ بغيرِ ملحٍ ولا إدام، وكان يكفيني ذلك الدرهمُ إلى سنةٍ، ثم عزمتُ على أن أطوي ـ يعني أجوع ـ وأصومَ ثلاثة أيام، ثم أُفطر ليلةً، ثم خمسًا، ثم سبعًا، ثم خمسًا وعشرين ليلة، وكنت

(١) في (ب): فلم يشف.
(٢) في الترجمة العربية صفحة ٥٠٨: حبيب بن حمزة.
(٣) في (أ): قوتي اختصارًا.

عليه عشرين سنة، وقال: أوصلت إلى سبعين يومًا، وربّما كنتُ أَقنعُ في أربعين يومًا وليلةً بلوزةٍ واحدة، وقال: جرّبتُ نفسي مدَّةً، كان ضعفي من الجوع، وقُوَّتي من الشبع، ثم مضى عليَّ زمانٌ رأيتُ ضعفي في الشبع، وقُوَّتي في الجوع.

نقل أنه كان قد كتب على أوراقٍ جميعَ ما كان له من النقد والجنس والعقار والضياع والصامت والناطق، ثم جمعَ الناس، ونثرَ عليهم أوراقًا، فمن أخذَ ورقةً، أعطاهُ ما كان مكتوبًا فيها خاصَّةً، وكان يُقبِّلُ على رؤوسهم، وفرح بأنهم قبلوا منه ما كان له من الدنيا[١].

وتوجّه إلى الحجاز، وقال لنفسه: يا نفسي، الآن إنّي مفلس من أسباب الدنيا، فلا تطلبي منّي شيئًا، إذ لا تجدينه، فشارطتِ النفسُ معه أن لا تطلبَ منه شيئًا، فلمّا وصل إلى الكوفة، قالتِ النفسُ: إلى اليوم ما طلبتُ منك شيئًا، فناولني هنا شيئًا من الخبز والسمك آكلُهُ، ولا أُتعبُكَ قطُّ إلى مكة. فدخل الكوفة ورأى جرّاشًا يجرشُ بالبغل، سأله وقال: بكم تكتري هذا البغل كلَّ يوم؟ قال: بدرهمين. قال الشيخ: خلِّ البغل، واشددني في مكانه بدرهم. ففعل، وأعطاه درهمًا إلى المساء، فأخذ الشيخُ بعد انقضاء العمل الدرهم، ودخل السوقَ، واشترى الخبز والسمك، ووضع بين يديه، وقال: يا نفس، إذا طلبتِ منّي شيئًا تشتهين، فأستعملك بأعمال البهائم من الصباح إلى المساء. ثم دخل البادية، وقطعها إلى أن وصلَ إلى مكّة حرسها الله تعالى، وأدرك هناك كثيرًا من المشايخ، وصحب ذا النون رحمه الله، ثم عاد إلى تُستر

قيل: ما أسند ظهرَهُ إلى جدارٍ، ولا جمعَ رجليه تحته كما يفعلُه أصحابُ الدنيا وأرباب الترفة، وما صعِدَ منبرًا، وما سألوا منه من المسائل لم يجبْ، وقد شدّ أصبع رجله أربعين[٢] شهرًا، فسألوا منه، فما أجاب، حتى ألحّوا عليه

(١) في (أ): ما كان له من الدنانير.

(٢) فوق كلمة (أربعين) كتب في(أ): أربعة أشهر.

كثيرًا إلى أن ذهب فقيرٌ إلى مصر، وجدَ ذا النون شدَّ على أصبعِ رجله، فسأله عنه، قال: لها وجع. قال: من كم زمان؟ قال ذو النون: منذ أربعين شهرًا[١]. فضبط الفقير الحساب، وعلمَ أنّه من الزمان الذي اتَّجعت[٢] أصبعُ سهل، وذكره لذي النون، فقال ذو النون: هل بقي من يطّلع على وجعنا ويُوافقنا

قيل: ثم بعده أسند سهل إلى جدارٍ، وجمع رجليه، وقال: سلوني ما بدا لكم. فسألوا عنه: إنك خالفت عادتك، ورجعت عنها، فإنّك قبل هذا ما اتَّكأتَ إلى حائطٍ ونحوه، ولا جمعتَ رجليك في القعود؛ بل كنتَ تقعدُ على الرُّكبتين، ولا كنت تُجيب عن المسائل التي يسأل الناس. قال سهل: ما دام الشيخ باقيًا لم يكن للتلميذ أن يشتغلَ بأمثال هذه. فكتبوا هذا الحال، فإذا قد توفّي ذو النون في ذلك الحال واليوم.

نقل أن عمرو بن الليث[٣] مرضَ، حتى عجزت الأطباءُ عن معالجته، فقالوا: نطلبُ شخصًا مُستجاب الدعوة، ليدعو له، فعسى اللهُ أن يشفيَهُ. وكانوا يتفحّصون من كلِّ ناحيةٍ، فسمعوا أن سهلاً مُستجاب الدعاء، فطلبوه، فامتثل أمر الله تعالى حيث قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وجاء إليه، وحين التقى به قال: الدعاءُ إنّما يُستجابُ فيمن يتوبُ إلى الله تعالى، ويرجعُ عن المعاصي والذنوب، وأنت قد حبستَ جماعةً من المَظلومين بغير حقٍّ. فأطلقَهم عمرو، وتابَ عن المعاصي، فرفع سهلٌ يديه وقال: إلهي، كما أَريته ذلَّ معصيته، فأره عزَّ طاعته، وكما أَلبستَ باطنَهُ لباسَ التوبة، فألبسْ ظاهرَهُ لباسَ العافية. فما أتمَّ الدعاء إلا أنه جلسَ عمرو وبرأَ، وصحَّ جسمُه بتوفيقِ الله تعالى، فأكرمه عمرو، وعرضَ عليه مالاً كثيرًا، فلم يقبل، وقال له مريدٌ: لو قبلتَ شيئًا، أَدّينا به الدَّينَ الذي علينا. فقال للمريد: إن كان لك شوقٌ

---

(١) فوق كلمة (أربعين) كتب في (أ): أربعة أشهر.

(٢) في (أ): اتجع أصبع.

(٣) هو عمرو بن الليث الصفار ثاني أمراء الدولة الصفارية، وهو أحد الدهاة الشجعان. حكم خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان. مات سنة ٢٨٩ للهجرة.

إلى المال، فانظر. فنظر المريدُ، فرأى الصحراءَ والجبلَ قد صار ذهبًا ولؤلؤًا، ثم قال سهل: من كان الله معه كما ترى، كيف يقبلُ من مخلوق شيئًا؟!

نقل أنه كان إذا سمع صوتًا طيّبًا يحصلُ له وجدٌ، وربما كان يبقى إلى خمسةٍ وعشرين يومًا لا يأكل طعامًا، ولو كان في أيام الشتاء يصبُّ عرقًا حتى يكاد يغرقُ فيه، ولو سئل عنه في تلك الحالة، كان يقول: ليس لكم عنّي وعن كلامي في هذا الحال انتفاعٌ.

نقل أنه كان يمشي على الماء ولا تبتلُّ قدماه.

نقل أنه قيل له: صحّ أنك تمشي على الماء؟ قال: اسألوا[1] عن المؤذن؟ فإنّه رجلٌ صادق القول. فسألوه، فقال: لا أعلم هذا، ولكن رأيتُهُ وقعَ في البركة، فلو لم أكنْ حاضرًا لأدركَهُ الغرقُ، ومات في البركة.

قال الشيخ أبو علي الدقّاق رحمه الله: كان سهلٌ صاحبَ الكرامات، ولكن يخفي على الناس.

كما نقل عنه أنه كان في المسجد، فجرى على لسانِهِ أنَّ شاةَ الكرماني ماتَ، فلما حاسبوا بعد ذلك وجدوا أنه مات في ذلك اليوم.

وأيضًا نقل أنَّ شخصًا دخل عليه يومًا، وهو في بيته، فرأى حيّةً عظيمةً في البيت، فقال الشخص: فزعتُ فزعًا شديدًا. فقال سهل: تعالَ ولا تفزعْ، فإنَّ المرء لا يصلُ إلى حقيقةِ إلاَّ إذا لم يفزع عمّا سوى الله تعالى. ثم قال: ماذا تقول في المسجد يوم الجمعة؟ قلت: بيني وبين المسجد مسيرةُ يومٍ وليلة. فأمسك سهلٌ بيدي، فلمّا فتحتُ العينَ ألفيتُ نفسي داخل المسجد[2]، فصلّينا الصلاة، وخرجنا ناظرين إلى الناس، فقال سهلٌ: أهلُ لا إله إلا الله كثير، والمخلصون قليل.

---

(١) في (أ): كان يمشي على الماء قال: اسألوا عن المؤذن. وما بينهما من (ب).

(٢) في (ب): ألفيت نفسي في المسجد داخله.

نقل أنّه كانتِ السِّباع تجيءُ إليه، وتجلسُ بين يديه، وهو يُعاتبُها ويُداعبُها، واليومَ يُسمّى ذلك البيت في تُستر بيت السباع.

نقل أنه عُرِضَ له من كثرةِ الرياضة والمجاهدة احتراقُ البول، ومع ذلك ما كان يقدرُ أن يقومَ من موضعه، لكنْ إذا دخلَ وقتُ الصلاة، يقومُ ويتوضَّأُ، ويصلّي، ولم تكنْ له مشقَّةٌ في ذلك، ووصل إلى ذلك الحال ولم يفتْ عنه مثقالُ ذرَّةٍ من الشريعة.

نقل أنه قال لمريدٍ: لا تغفلْ عن ذكر لا إله إلا الله في النهار، وداومْ عليه. ففعلَ ذلك أيامًا، ثم قال: افعلْ بالليل أيضًا كذلك. ففعل المريدُ إلى أن بلغ إلى أنه في النومِ واليقظة يقول (الله)، ثم أمره أن يتركَ الذِّكرَ جهرًا، ويشتغل بالفكرِ والمراقبة حتى صارتْ أوقاتُهُ مستغرقةً في الفكر والمراقبة، حتى نقل أنه كان جالسًا في بيته، فوقع قطعةُ الجذعِ من السقف على رأسه وانكسر رأسُه، وجرى الدم، وتقاطر على الأرض وتنقّشَ الدَّمُ على الأرض[1]: لا إله إلا الله.

نقل أنّه أمرَ مُريدًا بشغلٍ[2]، فقال المُريد: لا أَقدرُ على هذا الشغل، من لسان الناس. فالتفتَ سهلٌ رحمه الله إلى الحاضرين من أصحابه، وقال: لا يبلغُ إلى حقيقةِ هذا الشغل إلاّ من يحصلُ فيه أحدُ الأمرين: إمّا يَسقطُ الخلقُ من عينه حتى لا يلتفتَ إليهم، ولا يغتمَّ بذمِّهم، بل لا ينظرُ إلاّ إلى الخالق، وإما تَسقطُ نفسُه عن عينه حتى يأتي صفةً يراه الخلقُ، لا يُبالي بهم.

نقل أنه أخبر عند جماعةٍ أنَّ في البصرة خبّازًا هو من أولياء الله تعالى، فقصده أحدُ المُريدين، فلمّا وصلَ إليه، وجده أدارَ خرقةً حول لحيته احتراسًا من النار كما يفعله الخبّازون، فخطرَ في خاطر المريد: أنه لو كان وليًّا لما احترزَ من النار، ثم سلّم عليه، وسأل عنه مسألةً، فقال الخباز: إنك نظرتَ أولاً إليَّ نظر التحقير، ثم لا ينفعُكَ كلامي، ولا تنتفعُ منّي.

---

(١) في (أ): على الأرض، ولا يغفل من كلمة لا إله إلا الله.

(٢) في (ب): بشغلة.

نقل أنه قال: كنتُ نوبةً في بادية الحجاز أمشي مجرّدًا، فالتقيت بامرأةٍ عجوزةٍ شدّتْ على رأسها بخرقةٍ، وبيدها عصًا، ظننتُ أنّها تخلّفتْ عن القافلة، فأدخلتُ يدي في جيبي، وأخرجتُ شيئًا وأعطيتُها، فعضَّتْ على أَنْمُلَتِها متعجّبةً، ومدَّتْ يدَها، وأخذتْ من الهواء كتلةً من الذهب، وقالت: إنْ أخذتَ أنتَ من الجيب، فأنا آخذُ من الغيب. قالت هذا، وغابت عن نظري، صرت متحيِّرًا عن شأنها، حتى انتهيت إلى عرفات وإلى الكعبة رأيتُ الكعبةَ تطوفُ بالمرأة، فقالت: يا سهل، من خطى خطوةً ليرى جمالَ الكعبة، لا جرمَ هو يطوف بها، ومن خطى خطوةً عن نفسِهِ فالكعبة تطوف به.

أقول: المرادُ الانخلاعُ عن الصفة البشرية، والخروج عن الكدورات النفسانية، والغنى عن الأوصاف الناسوتية، والاتّصاف بما يكون من الأخلاق اللاهوتية، كما ورد أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، تخلّق بأخلاقي، ومن أخلاقي أنّي أنا الصبور. وما أحسنَ ما أُنشد في هذا المعنى:

وقومٍ تَاه في أَرضٍ بقفرٍ وقومٍ تاه في ميدانِ حُبِّهْ
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالحياة بقرب ربِّه

[والله أعلم].

قال سهل رحمه الله: اتّفقَ لي نوبةً مع رجلٍ من الأبدال صحبةٌ، وهو كان يسألُ منّي في الحقيقة إلى صلاةِ الصبح، ثم بعدها كان يَتركني وينزلُ تحت الماء، ويجلس هناك إلى وقت الظهر، فإذا سمعَ صوتَ المؤذّن كان يطلعُ من تحت الماء، لم تبتلَّ منه شعرةٌ، ويُصلّي صلاة الظهر، ثم ينزل في الماء، ويعتكفُ هناك، وما كان يخرجُ من الماء إلاّ للصلاة، فصاحبنا مدّةً من الأيام على هذه الحالة، ما كان يأكلُ ولا يُجالسُ أحدًا إلى أن فارقنا.

وقال سهل: رأيتُ ليلةً في المنام كأنَّ القيامةَ قد قامت، وجملةُ الخلائق وقوفٌ في المَحشر، ويطير طائرٌ أبيضُ، ويُمسكُ من كلِّ جانبٍ شخصًا، ويُدخلُه الجنة، فقلت: ما هذا الطائر الذي منَّ اللهُ به على عباده؟ فرأيت كاغدًا

جاء إليَّ من الجوِّ، فأخذته، ونظرته، فإذا فيه هذا الطائر شيء يسمى[١] الورع.

وقال: رأيتُ ليلةً أُخرى كأنّي في الجنة، واجتمعتُ مع ثلاث مئة شخص في مجمع[٢]، فسلّمتُ عليهم، وردّوا عليَّ الجواب، ثم قلتُ لهم: أيُّ شيءٍ كان أَخوفَ عليكم في الدنيا؟ قالوا: خوف الخاتمة.

وقال: لمّا أرادَ اللهُ تعالى أن ينفخَ الروحَ في آدم عليه السلام، نفخه فيه باسم محمد ﷺ، وسمّاه آدم عليه السلام، وكنّاه بأبي محمد عليهما السلام.

وقال: ليس في الجنةِ ورقةٌ إلا واسم محمد ﷺ مكتوب عليها، وليس فيها شجرةٌ إلاّ وغُرست باسم محمد ﷺ، فابتداء جميع الأشياء كان باسمه ﷺ، وختم الأنبياء عليهم السلام به ﷺ.

وقال: رأيتُ إبليسَ عليه ما يستحقُّه، قلت: يا ملعون، أيُّ شيءٍ أَشدُّ عليك من أعمال بني آدم؟ قال: إشاراتُ القوم إلى الله تعالى.

وقال: رأيتُ إبليسَ عليه ما يستحقُّه قاعدًا بين قومٍ، فقيّدته هناك بالهمّة إلى أن تفرَّقَ القوم، ثم قلت له: لا أطلقُكَ إلاّ بعد أن تحدّثَ في التوحيد. فشرع إبليسُ وقررَ في التوحيد فصلاً لو كان العارفون هناك لعضُّوا على أنامِلِهم تعجّبًا.

وقال: رأيتُ شخصًا جائعًا إلى غاية ما يمكن، وحضرَ عنده طعامٌ من الشُّبهة، فتركَ، ولم يلتفتْ إليه، واشتغلَ بالطاعة، وأتمَّ وِردَهُ ووظيفته، وكان ثلاث سنين مشغولاً بالطاعة، ولكن تلك الليلة شدَّ على بطنه، واشتغلَ بها برجولية تامَّةٍ، تاركًا للطعام الذي فيه شُبهةٌ، فعُرِضَ عليه أعمالُ جميع الخلائق، فلم يرضَ بها، إذ طاعته كانت أكثرَ وأزيدَ.

قال: لا تصحُّ الخلوةُ إلاّ بأكلِ الحلال.

من أكلَ في اليومِ والليل نوبةً، فهو على أكل الصدّيقين.

---

(١) في (أ): فأخذته، ونظرت فيه، هذا يُسمّى الورع.

(٢) في (أ): شخص في مجلس.

وقال: لا تصحُّ عبادةُ أحَدٍ، ولا يخلصُ عملُه إلاّ بالجوع.

وينبغي أن يختارَ العابدُ ثلاثةَ أشياء لتصحَّ عبادته، ويلتذَّ منها: الأول الجوع، الثاني الفقر، الثالث الذل.

من اختارَ الجوعَ طردَ عن نفسه الشيطانَ، وأبعدَهُ بتوفيق الله تعالى.

قال: إذا أكلتم إلى الشبع، فاطلبوا الجوعَ؛ فإنكم ابتليتم بالشِّبع، وأن بقيتُمْ فيه ربّما تجاوزون الحدَّ وتطغون.

قال: رأس الآفاتِ الأكلُ الكثير.

من أكلَ الحرام تقعُ أعضاؤه السبعةُ في المعاصي، أرادَ أم لا، ومَنْ أكلَ الحلالَ تشتغلُ أعضاؤه بالطاعة بتوفيق الله تعالى.

و: الحلال الصافي أن لا يصيرَ سببًا لنسيانك الله[1].

نقل أن بعضَ المريدين جاعَ جوعًا عظيمًا، ومضى عليه أيامٌ، فقال: يا شيخ، ما القوت؟ قال: ذكرُ الله الحيِّ الذي لا يموت.

ومن كلامه أنه قال: الناسُ على ثلاثة أقسام: قسمٌ منهم يُخاصمون مع أنفهسم لله تعالى، وقسمٌ يُخاصمون مع الخلق لله تعالى، وطائفةٌ يُخاصمون مع الله لأنفسهم، يقولون: لم لا يجري قضاؤك على وفق رضائنا؟!.

أقول: والطائفة الأخيرةُ هم الذين قال النبيُّ ﷺ: «ربّ أَشعثَ أَغبر لو أَقسمَ على الله لأبرّه[2]» لله درُّ من قال:

لله تحت قبابِ العزِّ طائفةٌ ... أخفاهُمُ في رداءِ الفقراء إجلالا
هم السَّلاطينُ في أَطمار مسكنةٍ ... استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
غبرٌ ملابسُهم شمٌّ معاطسُهم ... جرّوا على قُلَلِ الخضراءِ أذيالا

والله أعلم.

---

(١) في (أ) جاء بعد قوله: (لنسيانك الله): والله أعلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٢٢) في البر والصلة، باب فضل الضعفاء، و(٢٨٥٤)، والطبراني في الأوسط (٨٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٣١.

قال: لا تصحُّ تقوى أحدٍ إلاّ إذا أعرضَ عن المعاصي كلِّها.

وقال: مضى من الدنيا كثيرٌ من العلماء والزهاد والعباد، وما انفتحَ بابُ قلوبهم بالكليّة، ولم ينفتحْ إلاّ للصدّيقين.

و: لا يكملُ إيمانُ أحدٍ إلاّ عند صحّة ورعه.

و: الورعُ لا يتمُّ إلاّ بالإخلاص.

و: الإخلاصُ بالمشاهدة، والإخلاصُ هو البراءةُ عن غير الله.

و: خيرُ الخلائق هم المُخلصون، وخيرُ المخلصين هم الذين يستمرُّ إخلاصُهم إلى الموت.

لا يقفُ على الرياء غيرُ أهلِ الإخلاص، ومن الإخلاص حصلَ لهم هذا المقام.

قال: من لا يعبدُ اللهَ بالاختيار يعبدُ عبادَه بالاضطرار.

حرامٌ على قلبٍ يطمئنُّ بغير الله تعالى، فكأنه لم يشمَّ رائحة اليقين[1].

حرامٌ على قلبٍ أن يكون فيه شيءٌ لا يرضى الله تعالى به.

و: كلُّ وجدٍ لا يكون الكتابُ والسنةُ شاهدَيْنِ له فهو باطلٌ.

و: أفضلُ الأعمال أن يطهُرَ العبدُ من خبثه.

و: من انتقلَ من نَفَسٍ إلى نَفَسٍ من غيرِ ذكر الله فضائعٌ.

و: لو لم يكن بلاءٌ، لم يكن إلى الله طريق.

و: من يكون أربعين يومًا زاهدًا بالإخلاص يصيرُ صاحبَ الكرامة، وإلاّ فالخللُ منه، لا من الزهد.

قيل له: ما الكرامة؟ قال: أن يأخذَ ما يريدُ، ممّن يُريد، على وجه يريد.

و: من وكَلَهُ اللهُ تعالى إلى تدبير نفسه، فقد ألقاهُ في جهنَّم.

---

(١) الخبر ليس في (ب).

قال: العلماء على ثلاثة أوجهٍ وطوائفَ: طائفةٌ هم علماءُ الظاهر، ويذكرون علمهم لأهلِ الظاهر، وطائفةٌ هم علماءُ الباطن، ويذكرون علمهم لأهل الباطن، وطائفة علماءُ بما بينهم وبين الحقِّ، ولا يمكن أن يذكر ذلك العلم.

و: لا معصيةَ أَعظمُ من الجهل.

و: لا تنظروا إلى العلماءِ بنظرِ الحقارة؛ فإنّهم خلفاءُ الأنبياء عليهم السلام.

قال: لا يحصلُ الوصول إلى الله تعالى إلاّ بستَّةِ أشياء: التمسُّكِ بكتاب الله تعالى، والاقتداءِ بسُنّةِ الرسول ﷺ، وأكلِ الحلال، وتركِ إيذاء الناس، وإن لحقَكَ منهم إيذاءٌ، والبعدِ عن المناهي، والتعجيلِ في أداء الحقوق.

قال: أصولُ مذهبنا ثلاثة: الاقتداءُ بالنبيِّ ﷺ في أفعالِهِ وأقواله وأخلاقه، وأكلُ الحلالِ، والإخلاصُ في جميع الأعمال.

وقال: أولُ شيءٍ يجب على المبتدئ التوبةُ، وهي عبارةٌ عن الندامة على ما مضى من الذنوب والأفعال، وقلع الشهوات عن القلب، والانتقال من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة.

وقال: لا تحصل التوبةُ لأحدٍ إلاّ إذا لازم الصمت والسكوت والخلوة، وهما لا يصحّانِ إلاّ بعد أكلِ الحلالِ، والحلالُ لا يحصلُ إلاّ بعد أداء حقِّ الله تعالى، وحقُّ الله تعالى لا يُؤدّى إلاّ بحفظ الجوارح، والكلُّ لا يتيسَّرُ إلاّ بعد الاستعانة بالله تعالى على الجميع.

قال: أولُ مقامِ العبودية تركُ الاختيار، والبراءة عن حول نفسه وقوَّتها.

وقال: أهلك الإنسانَ شيئان: طلبُ العزِّ، والخوفُ من الفقر.

و: إذا خشعَ القلبُ لا يحومُ الشيطان حوله.

وقال: خمسةٌ من جوهر النفس: فقير يُرى غنيًّا[1]، وجائعٌ يُظهر الشِّبع، [وحزينٌ يُظهر السُّرور]، ورجل له عداوةٌ مع إنسانٍ فيظهر الصداقةَ إلى أن تزولَ

(١) في (ب): فقير يرى نفسه.

العداوة بالكلّيّة، ورجلٌ يصومُ في النهار ويُصلّي بالليل، ولا يُظهر ضعفَهُ[١].

و: لا حجابَ أَغلظُ بين العبد وربِّه من الدعوى.

و: [لا] طريقَ أقربُ إلى الله من الافتقار إليه.

وقال: من كان مدّعيًا لا يكون خائفًا، ومن لا يكونُ خائفًا لا يكون أَمينًا، ومن لا يكون أمينًا[٢] لا يكون له اطّلاعٌ على خزائن السلطان.

و: لا يجدُ رائحةَ الصدق من داهنَ غيرَه.

وقال: مثلُ السُّنة في الدنيا كالجنة في العقبى، من دخلَها أمنَ من الخوفِ، فكذلك من دخلَ حُصنَ السنة أمنَ من البدعة والهوى.

من طعنَ في الكسبِ فكأنّما طعنَ في السُّنة، ولا يصحُّ الكسبُ من أهل التوكّلِ إلاّ على طريق السنة.

وقال: أصل الآفاتِ كلِّها قلّةُ[٣] الصبر.

و: غايةُ شكرِ العارفين أن يعلموا عجزَهُم عن إحصاء الشكر؛ بل عن البلوغ إلى مبادىء حدوده.

وقال: لله تعالى في كلِّ يومٍ وليلة عليك إنعاماتٌ، وأكبرُها أن يُلهمَكَ ذكره.

و: لا معصيةَ أعظمُ من نسيان ذكر الله تعالى.

وقال: من أغمض عينه عمّا حرّم الله تعالى عليه لا يجدُ الشيطان إليه سبيلاً.

إنّ الله تعالى لم يخلقْ من العرشِ إلى ما تحت الثرى مكانًا أعزَّ من قلبِ المؤمن؛ لأنه لم يجد بعطاءٍ أعزَّ من الإيمان، فلا جرمَ وضعَ أعزَّ العطايا في أعزِّ الأمكنة، ولو كان في الدارَيْنِ مكانٌ أعزُّ من قلبِ المؤمن لوضعَ المعرفة فيه.

---

(١) ما بين معقوفين مستدرك من الترجمة العربية صفحة ٥١٨.

(٢) كذا أمينًا، ولعلها: آمنًا.

(٣) في (أ): كلّها من قلّة.

قال: العارفُ من لم يتغيّرْ طعمُهُ، وتكون رائحتُهُ كلَّ لحظة[١] أطيب.

لا ناصر، ولا معين إلاّ الله تعالى، ولا دليلَ إلاّ النبي ﷺ، ولا زادَ غير التقوى، ولا عملَ مثل الصبر على ما ذكرنا.

وقال: ما من يوم إلاّ وينادي فيه منادي الحقِّ جلَّ جلاله: عبدي، لا إنصافَ لك، أنا أذكرُكَ وأنت تنساني، أنا أدعوك وأنت تَذهبُ[٢] إلى باب غيري، وأنا أصرفُ عنك البلاء وأنت معتكفٌ على المعاصي، يا بن آدم، ما عُذرك لديّ إذا حضرت عندي غدًا يوم القيامة؟.

وقال: لمّا خلق الله تعالى الخلقَ قال لهم: ناجوا معي، وإن لم يكن لكم مقامُ المناجاة فانظروا إليَّ، وإلاّ فاطلبوا منّي حوائجكم.

وقال: لا يحيا القلبُ إلاّ بعد أن تموت النفسُ.

و: من صارَ مالكًا على نفسه صارَ مالكًا على غيره، كما قيل: إنَّ من صار سلطانًا على جسده فهو سلطانٌ على كلِّ جسدٍ، وإذا غلبتَ على نفسك لا يُقاومُكَ عدوُّك، ومَنْ ملكَهُ نفسُه فقد ذلَّ.

وقال: أوّلُ جناية الصدّيقين الموافقةُ مع النفس.

لا عبادة أفضلُ من مُخالفة النفس والهوى.

وقال: من عرفَ اللهَ جلَّ جلاله غرقَ في بحرِ الحزن والفرح.

علامةُ المعرفة الحيرةُ والدهشة.

أول مقامِ المعرفة أن يحصلَ للعبدِ يقينٌ في سرِّه، ثم تطمئنُ جميعُ جوارحه إلى ذلك اليقين.

وقال: الصادقُ من وكلَّ اللهُ تعالى عليه مَلكًا، إذا جاء وقتُ الصلاة هيّجَه إليها، وإن كان نائمًا أيقظه.

---

(١) في (أ): كل يوم.

(٢) في (أ) وأنت تروّحَ.

قال: الصوفي من صفي عن الكدر[١]، وامتلأ باطنه من الفكر، وانقطع عن غيرِ الله تعالى بالقلب والنظر، ويكون سواءً عنده الذهبُ والمدر.

وقال: التصوّفُ قلّةُ الأكل، والاطمئنانُ مع الحقِّ، والفرارُ عن الخلق.

و: أول مقام التوكّل أن يكونَ العبدُ بين يدي القدرةِ[٢] كالميت لدى الغسّال؛ فإنّه يُحرِّكُه كيف يشاء، ولا إرادةَ للميت أَصلاً، ولا حركةَ في نفسه.

وقال: لا يصحُّ التوكُّل إلاّ بترك التدبير.

وقال: علامةُ المتوكِّلِ ثلاثةٌ: تركُ السؤال، وترك الردِّ إن حصلَ له شيءٌ بغيرِ سؤال، والصدق إذا قَبِلَ بغير سؤال[٣].

وقال: التوكّلُ أن لا تجعلَ الله تعالى مُتَّهمًا فيما قال: أُوصلُهُ إليك.

أقول: يعني: اللهُ قد وعدَ وتكفَّل بأرزاق جميعِ العباد، حيث قال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فحينئذٍ لا يُتعبُ نفسَه في الطلب، فكأنه لم يصدّقِ الله تعالى في إنجازِ هذا الوعد؛ ولأجل هذا يجتهدُ في الطلب. والله أعلم.

قال: التوكّلُ أن يكونَ القلبُ مُطمئنًّا على حدِّ تقديرَيِ الوجدان والفقدان ـ أي الغِنى والفقر.

وقال: التوكّلُ لقلبٍ يَعيشُ مع الله تعالى بلا علاقة ـ أي إلى غيره تعالى.

وقال: لكلِّ حالٍ من الأحوال وجهٌ وقفا إلاّ التوكُّلُ فإنه وجهٌ بلا قفا. معناه: أنَّ الزُّهدَ والتقوى هو الاجتنابُ عن الدنيا لله تعالى.

و: المجاهدةُ مخالفةُ النفس والهوى لله، والشكرُ على النعماء، والصبرُ على البلاء إلى غير ذلك.

---

(١) في (أ): عن الكدورة.

(٢) في (أ): العبد بين الخوف والقدرة.

(٣) قوله: والصدق إذا قبل بغير سؤال. ليست في (ب).

و: التوكُّلُ مخصوصٌ بالله تعالى من غيرِ واسطةٍ.

وقال: المحبة مُعانقةُ الطاعة، والمخالفةُ للنفس، والبعدُ عن مخالفة المحبوب.

وقال: الحياءُ أعلى درجات من الخوف؛ لأنَّ الحياءَ صفةُ الخواصِّ، والخوفُ صفة العلماء.

أقول: يؤيِّدُه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]..

وقال: المراقبة الخوفُ من زوال الآخرة، وعدمُ الخوف من زوال الدنيا.

وقال: الخوفُ ذَكَرٌ، والرَّجاءُ أُنثى[١]، ونتيجتُهما الإيمان، ولا يَسكنُ الخوفُ والرجاء في قلبِ المتكبِّرِ، والخوفُ هو البعدُ عن المناهي، والرجاءُ الإسراعُ إلى الأوامر، والرجاءُ لا يصحُّ إلاَّ للخائف، والخوف أعلى المقامات، فالعبدُ يكون خائفًا ممّا جرى في علم الله تعالى في الأزل من التقدير عليه.

نقل أن رجلاً ادّعى الخوفَ، فقال له سهلٌ رحمه الله: هل فيك خوفٌ غيرُ خوف القطيعة؟ قال الرجل: نعم. فقال سهل: فإذًا ما عرفت الله تعالى، ولم تخف عن قطيعته.

أقول: وقد أحسنَ المقالَ من قالَ في بيان هذا الحال شعر:

إنَّ خــوفَ الفــراقِ قطّــع قلبــي قطَّــعَ اللهُ قلــبَ يــومِ الفــراقِ

والله أعلم.

وقال: المكاشفةُ ما أشار إليها عليٌّ[٢] رضي الله عنه: لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددت يقينًا.

قال: الفتوَّةُ مُتابعة السنة.

قال: الزهدُ في خمسة: في الملبوسِ، والمطعوم، والمشروب، فإنَّ مآلها

---

(١) في (أ): والحياء أنثى.

(٢) في(أ): ما أشار إليه الوصي.

إلى المزبلة، وفي الإخوان فإنَّ مآلهم إلى الفراق، وفي الدنيا فإنَّ آخرَها إلى الفناء.

قال: الدنيا هي النفسُ، فمن أحبَّها فقد أحبَّ ما أبغضَ الله.

قال: السفرُ من النفس إلى الله صعبٌ.

قال: النفس لا تخلو عن إحدى ثلاثة: الكفر، والنفاق، والرياء.

وقال: للنفسِ أسرارٌ كثيرةٌ منها ما ظهر على فرعون، وذلك لا ينكشفُ إلاّ فيمن هو مثل فرعون، وهو دعوى الربوبية.

وسُئل الشيخ رحمه الله عن الأُنس، قال: هو أن تستأنسَ الأعضاءُ بالعبد، والعبدُ بالله تعالى.

وسُئل عن ابتداء الأحوال ونهايتها، فقال: الورعُ أولُ الزهد، والزُّهدُ أولُ التوكل، وهو أول درجات العارفين، والعرفانُ أوّلُ القناعة، وهي ترك الشهوات، وهو أوّلُ الموافقة.

وسئل عن أصعب الأشياء على النفس، قال: الرِّضا، إذ لا حظَّ للنفس فيه أصلاً.

وسئل عن وصف الصدقين[1]، قال: أنتم لا تُطيقون أسرار الصدّيقين لأخبرها عندكم.

قيل: بم يُعلمُ أنَّ العبدَ يُصلّي بالليل؟ قال: بأن لا تَظهَرَ عنه خيانةٌ بالنهار.

قيل له: شخصٌ يقولُ: أنا كبابٍ، لا أَتحرَّكُ إلاّ بعد التحريك. قال: هذا إمّا كلامُ صدّيقٍ أو زنديق.

وسئل عن الخُلق الحسن، قال: أقلُّ مرتبتهِ[2] الاحتمالُ عن الناس، وتركُ المكافآت.

---

(١) الأصل: عن وصف الصادقين.

(٢) في (أ): أول مرتبته الاحتمال.

سئل: متى يظهرُ أَثرُ اللُّطفِ على العبد؟ قال: إذا صبرَ في المرضِ والجوع والبلاء إلى ما[١] شاء الله.

قيل: إذا لم يأكلْ أحدٌ كثيرًا، فأين تصيرُ نار الجوع؟ قال: يُطفئُها ماءُ النور الحاصل في القلبِ بسببه.

سئل عنه: ما التوبة؟ فقال: نسيانُ الذنوب. فقال السائل: بل أن لا ننسى الذنوب. فقال سهل رحمه الله: ليسَ كما فهمت، فإنَّ ذكرَ الجفاءِ في أيام الوفاء جفاء.

استنصح منه رجل، فقال: خيرُكَ في قلّةِ الأكل والنوم والكلام، ثم العزلة.

قيل له: الأسدُ يَجيءُ إليك زيارةً؟ قال: نعم، الكلبُ يجيءُ إلى الكلب.

قال له شخصٌ: أُريدُ أن أُصاحبك. قال: فإذا متُّ، فماذا تفعل؟ فصاحبْ أحدا لا تفارقه أبدًا.

قيل له: مع من نُصاحب؟ قال: مع العارفين؛ فإن ما يصدرُ عنك يكونُ له تأويلٌ عندهم، وتكون معذورا.

ومن مناجاته أنه قال: إلهي، ذكَرْتَني وما كنتُ شيئًا، فإن ذكرتُكَ لا يكونُ مثلي شيء.

وقيل: كان واعظًا حقيقيًا، وبسببه اهتدى خلق كثير.

نقل أنه لمّا قربَتْ وفاتُهُ، قيل له: من يقومُ مقامَكَ، وينوبُ منابك، ويعظُ على منبرك؟ وله أربع مئة مُريدٍ كلُّهم حواليه، وكان هناك مُشركٌ اسمه شاددل، ففتح الشيخُ رحمه الله عينَهُ وقال: يقوم مقامي شاددل. فقال الحاضرون: لعلَّ عقلَ الشيخ رحمه الله اختلَّ، من يكون له أربعُ مئة مُريدٍ، كلٌّ منهم عالم مرتاضٌ كامل، فكيف ينصّبُ مُشركًا مكانه؟! فقال الشيخ: اتركوا الشغب[٢]، وادعوا

---

(١) في (ب): إلاّ ما شاء الله.

(٢) في (أ): كتب تحت كلمة (الشغب): العناد.

شاددل عندي. فلمّا حضرَ، التفتَ إليه الشيخُ رحمه الله وقال: إذا كان اليومُ الثالث من وفاتي فاصعدْ منبري، واجلسْ مكاني، وحدّثْ وعظِ الناس. وتعجَّبَ الناس عن هذه الإشارة، فلمّا تُوفّي الشيخُ إلى رحمة الله، ومضى ثلاثةُ أيام، اجتمعَ بعد صلاة الظهر خلقٌ كثير ينتظرون وصيةَ الشيخ في شاددل، فجاء شاددل، وصعدَ المنبر، والخلقُ ينظرون إليه، ويقولون: ما هذا؟ رجلٌ مشركٌ، وعلى رأسه قَلَنْسُوةُ أهلِ الشرك، والزُّنارُ على وسطه! فتمكَّنَ على المنبر، ثم قال: سيّدُكم أرسلني إليكم، وقال لي: يا شاددل، أما جاءَ وقتُ أن ترفعَ قَلَنْسُوة أهلِ الشرك عن الرأس؟ ها رفعتُها عن رأسي، وقطعتُ الزنّارَ، ورفع مُسبِّحَتهْ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمدًا رسول الله، ثم قال: أَمرني الشيخُ بالحديث، ولا يجوز مخالفة المشايخ، وهو كان شيخَكُم، فهاشاددل قطع الزنار الظاهر، فإذا أردتم أن تجتمعوا بنا يومَ القيامة أقسمكم بالفتوة أن تقطعوا زنانير الباطن، وتبتدئُوا بإسلامٍ نظيف. فظهر في الناس غوشٌ، وانكشفت أحوالٌ عجيبة.

نقل أنه لما حُملت جنازة الشيخ رحمه الله اجتمع ناس[1] كثير، وازدحموا هناك، وكان في مدينته يهوديٌّ ابنُ سبعين، فحين سمع اليهوديُّ صياحَ الناس بالبكاء خرجَ من البيت، ولمّا وقعَ بصرُهُ على الجنازة، صاحَ ورفعَ الصوت، وقال: لا تُبصرون ما أُبصر! أرى[2] الملائكة يَنزلون من السماء، ويماشُّونَ بأبدانهم وأجنحتهم جنازةَ الشيخ. وأسلمَ اليهوديُّ في الحال ببركته.

قال أبو طلحة بن مالك: إنّ سهلاً دخلَ الدنيا وهو صائم، وخرجَ منها وهو صائم، ووصلَ إلى الحقِّ بغيرِ إفطار.

نقل أنَّ سهلاً كان يومًا جالسًا مع أصحابه، مرَّ رجلٌ، فقال الشيخ: في هذا الرجل سرٌّ. فبعدَ وفاةِ الشيخِ رحمه الله زارَ مريدٌ قبرَ الشيخ، وكان قاعدًا عند

---

(١) في (ب): اجتمعت ناس كثيرة.

(٢) في (ب): ما أبصر، أنا أرى.

قبرِهِ، إذ جاء ذلك الرجلُ يمرُّ في بعض أشغاله، فقال المريد: يا فلان، إنَّ الشيخَ الذي في هذا القبر قال: إنَّ فيك سرًّا؛ بالذي أعطاك ذلك السرَّ أرني شيئًا منه. فأشار الرجلُ إلى قبر سهلٍ رحمه الله وقال: قلْ يا شيخ. فقال الشيخ في القبر بصوتٍ عالٍ: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. فقال: يا شيخ، سمعنا أنه لا يكون لأهلِ لا إله إلا الله ظلمةٌ في قبورهم، فصحيح ما سمعنا أم لا؟ فقال الشيخ من القبر: صحيح صحيح.

نسألُ الله عزّ وجل أن ينوّرَ صدورَنا وقبورنا، ويزيدَ بتحصيل مرضاته سرورَنا، ويجمع بيننا وبين أحبّتنا وأهلنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا وإخواننا ومن أحبَّنا في دارِ كرامته مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، إنه رؤوف رحيم كريم.

* * *